



www.tafsir.net

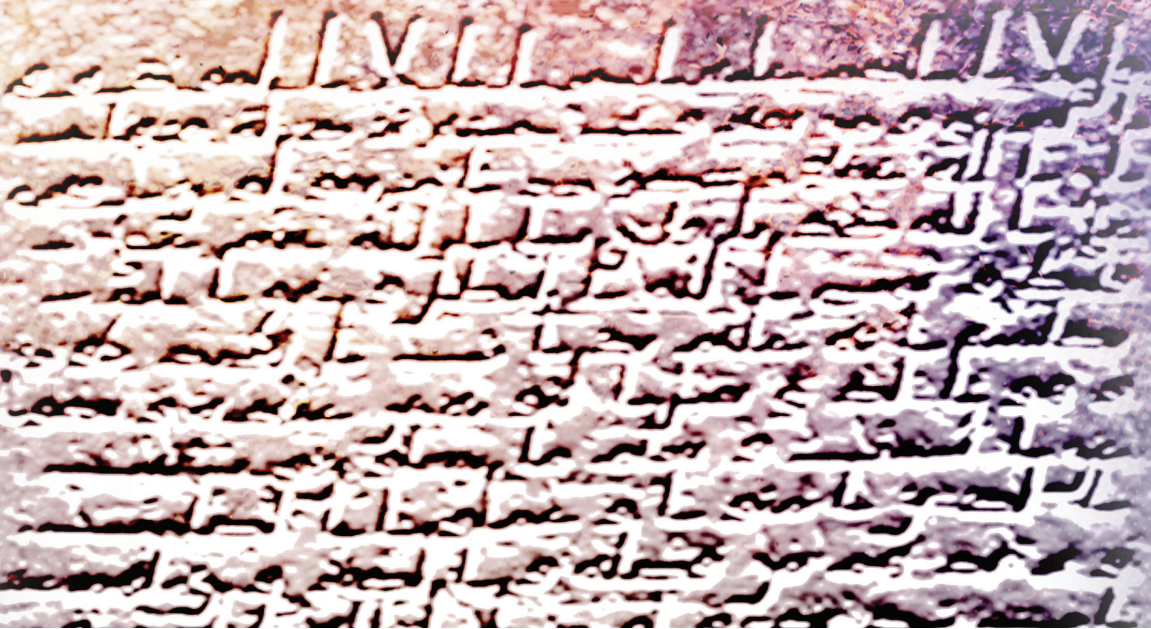
فريدريك إمبرت
Frédéric Imbert

قرآن الحجارة

إحصائيات نقوشية، وتحليلات أولية

ترجمة : مصطفى أعسو

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



صَاحِبُ الْمَقَالَةِ :

فريدريك إمبرت **Frédéric Imbert**، مُديرُ قِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالقُرُونِ الوَسْطَى والحديثه بمعهد إيفبو **Ifpo** منذ سبتمبر ٢٠١٥م.

حَصَلَ سنة ١٩٩٦م على درجة الدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية (جامعة بروفانس)، عن أطروحته الموسومة: «كتابات النقوش العربية في شمال الأردن» «**Corpus des inscriptions arabes de Jordanie du Nord**» وذلك تحت إشراف الأستاذ أوري **S. Ory**.

تَقَلَّبَ بَيْنَ عِدَّةِ مَنَاصِبٍ، أَهْمُهَا:

- (٢٠١٢ - ٢٠١٥): أستاذ جامعي «بروفيسور» (جامعة إيكس مرسيليا، قسم دراسات الشرق الأوسط).

- (١٩٩٧ - ٢٠١٢): أستاذ محاضر (جامعة إيكس مرسيليا، قسم دراسات الشرق الأوسط).

زَارَ بدءاً من سنة ٢٠٠٨م عدداً من البلاد الإسلامية؛ قَصَدَ إنجاز دراسات ميدانية على النقوش الإسلامية الباكراة، وهي: مصر (الجدار الأيوبي بالقاهرة)، وسوريا، والأردن، والمملكة العربية السعودية، منطقة نجران، ودومة الجندل.

من أهم مؤلفاته :

كتاب: العربية في جميع حالاتها: قواعد اللغة العربية في لوحات.

L'arabe dans tous ses états ; la grammaire arabe en tableaux, Ellipses, 2008, 310 p.

وله عدّة مقالات ذات صلةٍ بموضوع المقالة المترجمة، أهمها:

١ - إسلام الحجارة.

«L'islam des pierres : expression de la foi dans les graffiti arabes des premiers siècles», Ecriture de l'histoire et processus de canonisation dans les premiers siècles de l'islam, hommage à A.-L. De Prémare, REMMM, 129, 2011, pp. 57-77.

٢ - قرآن الحجارة: نقوش في طرق الحج.

«Le Coran des Pierres, Graffiti sur les routes du pèlerinage», Le Monde de la Bible, n° 201, juin-août 2012, pp. 24-27.

٣ - قرآن الحجارة: إحصاءات نقوشية، وتحليلات أولية.

«Le Coran des pierres : statistiques épigraphiques et premières analyses», Le Coran, nouvelles approches, CNRS éditions, Paris, 2013, p. 99-124.

٤ - نقوش إسلامية من بداية الإسلام: اكتشافات جديدة في العربية السعودية.

«Graffiti islamiques du début de l'Islam : nouvelles découvertes en Arabie Saoudite», CRAI (Comptes-Rendus de l'Académie des Inscriptions), 2013, II (avril-juin), p. 665-674.



مدخل:

شَهِدَتِ الْعُقُودُ الْحَدِيثَةَ نَهْضَةً فِي الدَّرَاسَاتِ الْغَرَبِيَّةِ الْمُتَّصِلَةَ بِبَدَايَاتِ الْإِسْلَامِ، أَوْ مَا يُسَمَّى بِالْإِسْلَامِ الْمُبَكَّرِ، وَاتَّجَهَتْ أَسَاسًا إِلَى دَرَاةِ تَارِيخِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ مَتَوَسِّلَةً بِكُلِّ سَبِيلٍ مُؤَدِّ إِلَى اكْتِشَافِ لَحْظَةِ انبِثَاقِهِ الْأُولَى زَمَانًا وَمَكَانًا، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ بَرَزَتِ الْإِبْيَغْرَافِيَا بِصِفَتِهَا دَرَاةً أَوْ عِلْمَ التَّسْجِيلَاتِ، أَيِ النَّصُوصِ الْمَدُونَةِ فَوْقَ مَادَّةِ صَلْبَةٍ، كَمَعْلَمَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ لَوْحَةٍ، أَوْ وَسَامٍ، أَوْ عُمْلَةٍ مَعْدِنِيَّةٍ، أَوْ مَزْهَرِيَّةٍ، أَوْ حِجَارَةٍ، تَبْتَغِي تَرْسِيخَهَا وَتَمْتِينَهَا، وَقَدْ أَخَذَتْ هَذِهِ الْمَنْهَجِيَّةُ مَرْكَزِيَّةً كَبِيرَةً مَعَ بَرُوزِ الْإِتِّجَاهِ التَّنْقِيحِيِّ عَلَى سَاحَةِ الدَّرْسِ الْاسْتِشْرَاقِيِّ بِاعْتِمَادِهِ الْأَسَاسَ عَلَيْهَا فِي تَكْوِينِ مَعْرِفَةِ بَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَرَفْضِهِ اعْتِمَادِ أَيِّ مَعْلُومَةٍ عَنِ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ لَا تُؤَيِّدُهَا أُدْلَةٌ أَرْكِوْلُوجِيَّةٌ وَنُقُوشِيَّةٌ.

ويعتبر فريديريك إمبرت أحد الباحثين الذين انصرفوا إلى هذا اللون من الدراسة؛ حيث تمكن من مسح عددٍ من الأماكن في عددٍ من البلاد الإسلامية (مصر، سوريا، الأردن، المملكة العربية السعودية)؛ منقبًا عن النقوش الباكورة التي تحمل شذرات من النصِّ القرآني، أو نصوصٍ مستمدة من مادته. والمقال الذي بين أيدينا هو محاولة تجميع وتأويل لنتائج هذه الدراسة، وكأنها تطبيق عملي لهذه المنهجية، وسواء وافقنا المؤلف فيما ذهب إليه من مذاهب أثناء تأويله أو خالفناه؛ فإن المقصد الأصيل لهذه الترجمة هو تبين ملامح هذا التوجه الجديد في دراسة تاريخ القرآن، والذي أعطاه مركزية ظهور الاتجاه التنقيحي، والإفادة من المعطيات العلمية التي لا غبار على أهميتها، والإشارة إلى جهد الباحث في التنقيب عنها، وتقريب هذه المنهجية نظريًا وعمليًا للمشتغلين.

نص المقال (١)؛

شَرَعْنَا مُنْذُ عِدَّةِ سِنِيَّاتٍ فِي بَحْثٍ حَوْلِ النُّقُوشِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَثَرِيَّةِ (٢)، وَقَدْ كَانَ بَحْثًا مَطَوَّلًا وَمَشُوقًا، نَشْعُرُ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ مَسَارَ اِهْتِمَامِ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي دِرَاسَةِ النُّقُوشِ (الِإِبْيَغْرَافِيِّينَ) فَحَسَبِ، بَلْ كَذَلِكَ الْمُؤَرِّخُونَ وَعِلْمَاءُ اجْتِمَاعِ الْأَدْيَانِ وَاللِّسَانِيِّينَ الْمُشْتَغَلُونَ عَلَى الْقَرْنَيْنِ الْهَجْرِيَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ فِي سِيَاقِ بَزْوَعِ الْإِسْلَامِ.

فِي سَنَةِ ١٩٩٨، وَضَعْنَا الْمَعَالِمَ الْأُولَى لِتَفْكِيرٍ يَتَأَسَّسُ عَلَى تَحْلِيلِ النُّقُوشِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأُرْدُنِ، مَسْتَشْرَفِينَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ إِرْسَاءَ قَوَاعِدِ تَوْجِهٍ جَدِيدٍ فِي الْإِبْيَغْرَافِيَا الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ حَصَرْنَا جِهودَنَا فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنَ الدِّرَاسَةِ فِي عَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنَ النُّقُوشِ Graffiti الَّتِي أَجْرَيْنَا عَلَيْهَا تَحْلِيلَاتٍ عَامَّةً، وَكَانَ الْهَدَفُ حِينَئِذٍ هُوَ إِبْرَازُ أَهْمِيَّةِ وَضُرُورَةِ مَزْجِ الْإِبْيَغْرَافِيَا بِشَكْلِ أَكْبَرَ فِي الدِّرَاسَاتِ حَوْلِ الْقُرْآنِ، فَلَمْ يَعدِ يَنْبَغِي أَنْ تَقْتَصِرَ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْقَائِمَةِ عَلَى النِّقْدِ النَّصِّيِّ وَالِدِينِيِّ وَالْأَدْبِيِّ وَالتَّارِيخِيِّ السَّاعِي إِلَى ضَبْطِ وَضْعِيَّةِ الْكِتَابَةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

إِنَّ الْقُرْآنَ وَإِنْ كَانَ يَظَلُّ أَسَاسَ عَقِيدَةِ جُلِّ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ يَبْقَى كَذَلِكَ نَصًّا يَنْدَرِجُ فِي لِحْظَةِ مِنَ التَّارِيخِ وَفِي مَكَانٍ جِغْرَافِيٍّ يَعْرِفُهُ النَّاسُ. فَحَسَبِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، كَانَ الْقُرْآنُ مَحَلًّا وَحِيٍّ إِلَهِيٍّ خِلَالِ الرَّبْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ فِي غَرْبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ إِخْضَاعَهُ لِتَحْلِيلٍ يَهْدَفُ إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الْمَرَاكِلِ الْكَبْرَى لِتَبْلُورِهِ الْمَادِي دُونَ أَنْ يَسْتَدِنَّ

(١) قَامَ بِكِتَابَةِ الْمَدْخَلِ، وَكَذَا كِتَابَةِ الْحَوَاشِي وَالتَّعْلِيْقَاتِ الْوَارِدَةِ فِي نَصِّ التَّرْجَمَةِ؛ مَسْؤُولُو قِسْمِ التَّرْجَمَاتِ فِي مَوْقِعِ مَرْكَزِ تَفْسِيرِ الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

مصدر المقالة: Le Coran des pierres : statistiques épigraphiques et premières analyses», Le Coran, nouvelles approches, CNRS éditions, Paris, 2013, p. 99-124.

(٢) إف. إمبرت؛ «Le Coran dans les graffiti des deux premiers siècles de l'Hégire»، ص ٣٨١-٣٩٠.

ذلك بالضرورة على المصادر التاريخية وكتب الأعلام والسير الإسلامية، والتي نَعْلَمُ أَنَّهَا كانت متأخرة عن الأحداث، وهي فضلاً عن ذلك تدرج في منطق بلورة تاريخ مقدس، مُجمَع عليه للأبد.

وعلى الرَّغْمِ من ذلك؛ فَإِنَّ الوحدة الظاهرة للنص -وراء الرسالة التي ينقلها- لا تُرى إلا من خلال القرآن في صورته الكتابية (المصحف)، أمَّا القارئ؛ فهو عادة ما يصدمه التَّفكيك الشُّكْلِي الناتج عن إعادة الترتيب الأصلي للِسُور^(١).

إِنَّ القرآن عبارة عن متن مُشكَّل من عدة عناصر تَعْمَلُ على إثرائه بشكل تدريجي، وَيُمْكِنُ له أيضًا -بشكل مادي- أن يُدرس في الميدان على جُذْرَانِ المعالم التاريخية القديمة أو العربية، وعلى الصخور المُترامية على طول الطرق، وفي الفيافي حيث يضع العرب نقوشهم بحريَّة.

تَهْدِفُ هذه الدِّراسات الميدانية ذات التَّنقيبات الطَّويلة إلى جَمْعِ النُّقُوش الموصوفة بالـ«قرآنية»، والتي تَسْمَحُ بتذكيرنا بأنَّ القرآن ليس متناً مُغلَقاً، وبأنَّه بالإضافة إلى صورته المُفصَّلة (الكتاب)، يمكنه أيضًا أن يكون صوتاً (الترتيل)، أو فنًّا (الخط)، ومن ثم فيمكن أن يكون حجارة! وهكذا فإنَّ النُّقُوش المنحوتة على الصخور وعلى واجهات الجبال أو المعالم التاريخية؛ هي نُصوصٌ حرَّةٌ وخاصةٌ، خَلَّفَهَا عَرَبٌ مجهولو الهُوية، ولم تخضع قطُّ لغربال الرقابة اللغوية أو السياسية أو الدينية.

(١) بالطبع يقصد هنا الكاتب «القارئ الغربي الحديث»، وهذا بسبب أن هذا القارئ يسقط نظم كتابة خاصة ذات خصائص محددة على القرآن، ثم يتهم القرآن بالتفكك لعدم السير على مقتضاها، وهو بالطبع أمرٌ مشكَّل؛ حيث لا بد للقارئ في قراءته لأي نص أن يراعي الخصائص الخاصة لهذا النص، لأن يعايره لمعايير لا تلزمه، ولتفصيل وإفادة أكبر في هذا السياق، تراجع مادة «مقاربة نص مؤسس؛ الصعوبات، الحلول، الحدود، انطلاقاً من دراسة القرآن» لأن سيلفي بواليفو، ترجمة: خليل اليماني، والمنشورة ضمن نفس الملف «الاتجاه التنقيحي» <http://tafsir.net/translation/8>، حاشية رقم (٣) ص (٩، ١٠)، مسؤولو قسم الترجمات.

تُساعدُ بَعْضُ الأرقامِ المتعلقة بتأريخ النقوش على قياس ضخامة المتن؛ فإذا أخذنا بعين الاعتبار المائة سنة الأولى للهجرة (١-١٠٠هـ / ٦٢٢-٧١٩م) من خلال التركيز الصارم على النصوصِ النقوشيةِ الثلاثة والثلاثين المؤرخة على الحجارة^(١)، فإننا نلاحظ أن أربعة وعشرين منها هي نقوش؛ أي بنسبة ٧٣٪، تُشكّلُ هذه النصوص لدى الباحث الإبيغرافي مصدرًا فريدًا للمعلومات، لا سيما عندما تأتي من الجزيرة العربية أو الشرق الأوسط، وعندما تتّمي زمنياً إلى القرنين الأول والثاني الهجري (السابع والثامن الميلادي)، موادّ خامّ لم يَسبقِ معالجتها، تجليات حجرية لفكر قديم، شذرات من ذاكرة عربية مُستحَفرة.

عَرَضُ تَعْرِيفِيٍّ بِالْمَتْنِ:

نُدرِكُ بيسر الأهمية التي يكتسيها علم النقوش (*la graffitologie*) في إطار الدّراسات التي تركّز خاصّة على القرآن التاريخي. إنّ النُّصوصَ التي تُشكّلُ متنَ عملنا هي مأخوذة من عمليات بحث وتنقيب أُجريت في كلِّ من الأردن وسوريا^(٢)، فضلاً عن العديد من المقالات والمونوغرافيات (الدراسات التي تتعلق بموضوع واحد) التي تتناول نقوشاً خارج المناطق التي امتدَّ إليها تنقيبنا (المملكة العربية السعودية، ومصر، والعراق، ولبنان). والهدف هو الكشْفُ عن مجموعة موضوعية متقاطعة وشرق أوسطية.

(١) باستثناء العناصر المنقولة من طراز ومنقوش باللغات غير العربية (التي يرتفع في حالتها عدد النصوص المؤرخة في القرن الأول إلى ٣٨، وعلى هذا تكون نسبة النقوش ٦٣٪). يمكن إيجاد القائمة الشاملة للنقوش المؤرخة في مقالة لـ "إف إم برت" بعنوان:

«L'islam des pierres : l'expression de la foi dans les graffiti arabes des premiers siècles» المنشورة في *des premiers siècles de l'islam*، تكريماً لـ A.-L. de Prémare، مجلة العوالم الإسلامية والبحر المتوسط (REMMM)، العدد ١٢٩، ٢٠١١، ص ٥٧-٨٧.

(٢) ورد بالمقالة أسماء لمواقع عديدة كانت موضعاً للتنقيب، إلا أننا لم نتمكن من معرفتها بوجهٍ صحيح، وذلك ربما لإشكال النخرة أو لارتباطها بأماكن غير معلومة وليس لها شهرة، مسؤولو قسم الترجمات.

إنّ المتن الذي يُعدُّ بمنزلة أساس لهذا البحث ما يزال في طور التبلور، إنّه يدرج -في النهاية- النقوش الأكثر أهمية من كلّ نوع والتي تمّ انتقاؤها في المقام الأول وفقاً لمعايير زمنية، إنها تسبق العام ١٥٠هـ / ٧٥٠م، وهي الحِقْبَةُ التي تغطّي -حسب التأريخ التقليدي الموروث- بدايات الإسلام وفترة الخلفاء الأوائل والأمويين وبدايات الأسرة العباسية. أمّا المعيار الثاني المأخوذ بعين الاعتبار؛ فهو طول النصّ وأصالته؛ فبعض الأدعية القصيرة والمتكررة مئات المرات لا تجد لها في المتن إلا مكاناً ضئيلاً ومحدوداً^(١).

وبالتأكيد، فقد تمّ أخذ الأدعية أو المآثورات الأصلية، وكذلك الآيات القرآنية بشكل تلقائي؛ وكذا النقوش التي تتضمن أخباراً كُتِبَتْ بِلُغَاتٍ مَعْرُوفَةٍ، وتلك الجديرة بالملاحظة من وجهة نظر علم الخطاطة أو الباليوغرافيا.

إذا أَرَدْنَا التَّحَدُّثَ بلغة الجغرافيا، فإنّ هذه النقوش تتوزّع بوضوح بين تدمر (سوريا) ونجران (جنوب المملكة العربية السعودية)، وفقاً لمحور شمالي -جنوبي يعبر الحجاز في اتجاه اليمن. أمّا في شمال المملكة العربية السعودية وسوريا والأردن، فإنّ المواقع التي عُثِرَ فيها على نقوشٍ تَنَدَرُجُ بالأحرى ضمن المناطق السّهية (الفيافي) والبركانية الواقعة شرق حدود الأراضي الزراعية، وهي عديدة وموفرة على امتداد المحاور الثانوية التي تربط دمشق بوادي السّرحان نحو وسط المملكة العربية السعودية مروراً بالحرّات (أي الفيافي البركانية)^(٢).

(١) لا تندرج الأدعية المشتملة على طلب المغفرة أو الرحمة على غرار «اللهم اغفر ل» إلا مرة واحدة في الموقع، مع أنها تتكرر عشرات المرات، إن لم نقل مئات المرات.

(٢) أُجريت التنقيبات الميدانية منذ ١٩٨٦م بالأردن، وحديثاً في سوريا. ومن بين المواقع التي جرى التنقيب فيها وعُثِرَ فيها على نقوش، نجد: جرش، وقصر الحرانة، وقصير عمرة، وقصر الحلابات، وقصر برقع، وقصر الأزرق، وقصر المفروق، وقاع شببكية، والرويشد، وجاوا، ووادي العبد، ووادي سلمى، والبراء، ووادي رام، إلخ. وفي سوريا: بشكلٍ أساسي تدمر، ووادي الفرات، والرصافة، وجبل أسيس، وبُصرى.

وإذا ما أوغلنا جهةَ الغرب تَبَدَّتْ لنا لبنان وشمال فلسطين فقيرتين بالنقوش، خلافاً للنقب وسيناء؛ حيث ثراء الكثافة النقوشية^(١). وفي الجهتين اللتين تحيطان بهذا المجموع المركزي نجدُ مصر والعراق اللتين لم نُنقَبْ فيهما إلا قليلاً.

في الواقع، تَمَتَّدُ أرض النقوش أكثر في الجنوب في المملكة العربية السعودية، تكثرُ المواقع التي اكتشفت فيها أهمّ النصوص على طول الطرق التجارية القديمة بالجزيرة العربية العتيقة، والتي غَدَتْ بعد مجيء الإسلام طُرُقًا للحجيج. أمَّا في الشمال، فقد تَطَوَّرَ النشاط النقوشي بجوار مناطق تبوك ومدائن صالح، غير بعيد عن الطرق السورية والمصرية المُفضِيَّة إلى الأماكن المقدَّسة، وهي تتركز في الواقع حول المدينة ومكة والطائف وحتى أحواز نجران. وفي داخل المملكة العربية السعودية أُجْرِيتْ أعمال جمع وتنقيب على طول طريق درب زبيدة بين مكة والكوفة في العراق^(٢). أمَّا في اليمن؛ في حضرموت، وفي عمَّان، وكذلك على ساحل الخليج الفارسي، فلم يُعثر إلى الآن على نقش قديم يُعوذُ إلى الفترة الإسلامية.

المتن في أرقام:

في نطاق الوضع الحالي للدراسة، ومن بين مئات النقوش التي جرت دراستها، قُمنَا بتسجيل خمسة وثمانين نصًّا يذكر القرآن بِشكْلٍ أو بآخر، ولعلَّ هذا الرقم يبدو ضئيلاً إلى حدِّ ما، لكنَّه يعكس بلا ريب مكانة النصِّ القرآني في المجتمع العربي الإسلامي الأول؛ قرآن في طور التبلور، لم يَرَسْ بعد على شكله النهائي، ولم يُنشر على نحوٍ ما بشكل جيد.

(١) مواقع سدي بوكر، وعين عبدات، وحمامات جادرا، وإيلات، ووادي الحجاج، إلخ.

(٢) مواقع الوجيرية، وقاع بني مر، وقاع المعتدل، وبدا (شمال)، والجة، وجبل الهويد الحناكية (وسط)، ووادي الأصيل، والمعيسم، ووادي حرمان (مكة)، وسد عكرمة، وسد تاماوالي، وسيسد (الطائف)، ووادي حسبية، وجبل عراير (نجران)، إلخ.

من الواضح أنه مع ازدياد متن هذه النقوش سيتعاضم عددُ ذكر الآيات، ولكنه على وضعه الحالي يَمْنَحُنَا بالفعل صورة فريدة إلى حدٍ كبيرٍ عن موضوع القرآن في النصوص الخاصة المنحوتة على الحجارة.

إنَّ «تحويل» هذه المقاطع الخمسة والثمانين إلى آيات وسور وفقاً للمصحف أمرٌ دَقِيقٌ وصعبٌ نسبياً؛ إذ إننا لا نَمَلِكُ إلا مقتطفات تختلف في الغالب عن نصِّ المصحف، وأخصُّ من ذلك أن نصَّ المصحف يُكْرَرُ بعض الصيغ عدداً كبيراً من المرات، وذلك مثل ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ التي وجدت في نقش في عين عبدات بالنقب^(١)، والتي تحيل على سبع آيات مختلفة، من المستحيل معرفة أيها بالضبط كان المقصود أثناء عملية النقش، ولا حتى إن كان القرآن هو مُلْهِمَ تلك النقوش. يمكننا أيضاً أن نذكر هنا مقطعاً متداولاً بشكل كبير في الإبيغرافيا القديمة يتحدث عن القدرة الإلهية: [إنك / إنه / إن الله] على كل شيء قدير، والتي نجدها ثلاثة وثلاثين (٣٣) مرة في القرآن.

وهذا هو السبب الذي من أجله كان علينا أن نأخذ بعين الحُسابِ هذه التكرارات للصيغ المتطابقة والمتفرقة في الكتاب؛ حيث أعانت على هيكلة النصِّ وجعلت منه لِمَاطِها [اللماط هو مادة تضاف إلى أخرى لتكشف أجزاءها المركبة].

وإذا كانت هذه التكرارات تتسم بطابع خاصٍّ ومتمفرد في مجال البلاغة القرآنية، فإنها هنا أيضاً لتذكرنا بأن النصَّ قد تشكَّل بلا ريب حول نُقولٍ متتابعة وغير منظمة، أُخِذَتْ من مصادر متنوعة.

وبحساب هذه الاستشهادات المتعددة، فإنَّ عدد العناصر المتصلة بالقرآن يرتفع إلى (١٩٧)؛ لدينا على سبيل المثال استشهادات من (١٣) آية من سورتي البقرة (٥٪) وآل عمران (٦٪)، و(١٧٪) من التحريم، و(٣٪) من الشعراء.

(١) نيفو إي كورين جي، Crossroads to Islam، ص ٤٠٨، رقم BR 5131 (٣٢).

يتضمن المتن ثلاث سور كاملة (الفاتحة والنصر والإخلاص)، وبالنظر إلى التّقسيم مكّي مدني (حسب الترتيب الرسمي للمصحف) تدرج (١٠٧) آية (منها ٤ نصوص بها إقحامات) ضمن المدنية، و(٩٠) ضمن المكية، وإذا أعدنا صياغة هذه النصوص إلى سور، فسيكون لدينا مقاطع من (١٩) سورة مدنية و(٤١) سورة مكية، ما مجموعه (٦٠) سورة من بين (١١٤) سورة يضمها القرآن (أي بنسبة ٥٣٪ من تمثيل السور القرآنية).

في الوضع الحالي لأبحاثنا؛ نجد أن (٥٤) سورة ليس لها أي ذكر في النقوش، لقد بدأ لنا من المهم أن نحسب أيضًا نسبة البسملات التي تفتّح بها الأدعية والمقاطع القرآنية، وجدنا ببساطة أنها لا تعدو (١٩٪) من النصوص.

لقد افترضت أبحاثنا في هذا المجال سابقًا وجود تعارضات بين صيغة البسملة وتلك الصيغ العديدة التي تتضمن الجذرين «ولي» و«وثق»، (الله ولي... الله ثقة... أو بالله يثق...)، وفي هذا الصدد تم اكتشاف (٢١٠) نقشًا في موقع بدا في المملكة العربية السعودية، بدت نسبة ذكر البسملة فيها منعدمة^(١).

مسائل التحقيب:

لأجل معايينة جيدة لتقديم هذا التحليل قمنا بعرض مقتطفات النصوص المختلفة التي بحوزتنا في إفريزات أفقية من (١١٤) خانة (خانة لكل سورة)، مع تظليل الخانات التي نملك منها شاهدًا من آية باللون الرمادي.



وفقًا للترتيب الموروث الخاص بالطبعة العثمانية، كانت النتيجة مبهمّة إلى حدّ ما: تركز استشهادات قرآن النقوش بالأحرى في السور الطويلة والمتوسطة

(١) إف. إمبرت؛ «L'islam des pierres»، REMMM، انظر أيضًا: حياة الكلابي؛ الآثار الإسلامية ببلدة بدا.

(أي في يسار اللوحة)، نلاحظ الغياب النسبي للآيات الواردة من السور القصيرة الواقعة في النهاية، والتي هي بالأساس مكية (يمين اللوحة)، باستثناء سور الشمس (رقم ٩١)، والنصر (رقم ١١٠)، والإخلاص (رقم ١١٢).

ولكي نقدّم رؤيةً أكثر تناعماً ووضوحاً فقد قمنا بإعادة ترتيب المقاطع القرآنية حسب منطق تاريخي وزمني (كرونولوجي)، مُعتمدين على أهم ثلاثة اقتراحات لإعادة الترتيب، والتي قدّمت من قبل جامعة الأزهر بمصر (١٩٢٣ م)، ثم من قبل المستشرقين الغربيين ثيودور نولدكه سنة ١٩٣٠ م وريجيس بلاشير سنة ١٩٤٩ م. بدت النتائج الأولى مثيرة إلى حدّ كبير؛ حتى إذا اعتمدنا الاستشهادات المتعددة لنفس العبارة أو الآية داخل مختلف السور، نلاحظ ظهور تركيز زمني باتجاه يمين الإفريز يُغطي بالأحرى الفترات المكيّة المتأخرة والمدنية. في الترتيب الزمني الخاصّ بالأزهر، نجد سورتي الفاتحة والإخلاص التوحيد، هما اللتين بقيتا دون غيرهما في الفترة الأولى (الإفريز التالي):

ترتيب الأزهر



لكننا نعلم أنّ التراث -الذي يريد الأزهر أن يكون صداه- يضع بالأحرى هاتين السورتين الرمزيّتين في بداية الوحي. أمّا بلاشير ونولدكه فهما يتفقان على وضعهما في وسط الوحي (بين الموضعين ٤٤ و ٤٨)، كما نجد عند نفس هذين المستشرقين أنّ سورة الشمس هي التي تظّل على نحو غريب في المؤخرة^(١)، لا

(١) ثمة غرابة في وصف الكاتب لسورة الشمس أنها تظّل متأخرة، مع أنها متقدمة تبعاً لترتيبي نولدكه وبلاشير اللذين أوردهما، وربما الأقرب أنه أراد أنها تظّل محلّ جدل لا متأخرة؛ ذلك أنه تحدث بعد ذلك عن الاختلاف الكائن في ترتيبها لدى الأزهر ونولدكه وبلاشير، مسؤولو قسم الترجمات.

يوجد مصدر واحد من هذه المصادر الثلاثة يتفق على موضع واحد لهذه السورة،
بينما يضعها الأزهر في الرتبة السادسة والعشرين، نجد نولدكه يضعها في الرتبة
السادسة، وبلاشير في الرتبة السابعة.

ترتيب نولدكه



(١)



ترتيب بلاشير

وفي نفس الصدد، نجد أنّ الإشارة المقتضبة إلى ثمود في نقش يقع في نواحي
منطقة العُلى (بالعربية السعودية، القرن الأول) تمثل الشهادة الإيغرافية الوحيدة
المعروفة للقرآن «القديم». في هذا النصّ لم يُوصف الله إلا بكونه من جحدته
ثمود (آمنت بما كذّبت به ثمود)، هذه الإشارة تُرسّخ الإسلام الأولي في الموروث
العربي المحلي، يعتبر قوم ثمود -الذين سكنوا في الحجر (مدائن صالح)- مع
قوم عادٍ جزءاً من القبائل التي أُبّدت بسبب فجورها. فعلى إثر «تكذيبهم» (ذكرت

(١) يلاحظ وجود خطأ في الرسم البياني المتعلق بترتيب نولدكه فيما يتعلق بوضع سورة الشمس؛ حيث
تظهر فيه مطابقة في ترتيبها لترتيب الأزهر، على الرغم من أنها ليست كذلك في ترتيب نولدكه كما أورد
الكاتب نفسه؛ إذ قرر تقدمها كما هو الحال في ترتيب بلاشير لها، مسؤولو قسم الترجمات.

لفظة كَذَّبَ في النقش) شهدوا عقاباً إلهياً رادعاً. يبدو تدخل إله الإسلام واضحاً إلى حدٍّ كبيرٍ في الموروث المحلي القديم جداً^(١).

تأتي بعد ذلك سورة الواقعة حسب ترتيب بلاشير - طبقاً لمعيار الأقدمية - والتي تَظْهَرُ مُتَأَخِّرَةً إلى حدٍّ ما عند نولدكه. يرجع المقتطف الإبيغرافي إلى وادي العسيلة - قريباً من مكة - وَيَنْتَمِي زمنياً إلى القرن الأول، حيث يتعلَّق الأمرُ بوصفٍ طويلٍ لِلجَنَّةِ ومُضيفيها^(٢).

نلاحظ أنه عند بلاشير ونولدكه على حدٍّ سواء، تأتي سورة النبأ دائماً في الخلف، يُعْطِي المقتطف الذي عُثِرَ عليه في المملكة العربية السعودية من هذه السورة إشارة بسيطة إلى الألوهية الموصوفة بـ«رب السماوات والأرض وما بينهما»، لكن هذه الآية تبدو مثيرة للريبة من حيث تموضعها في السورة^(٣).

إجمالاً، وفي ظلّ التقدم الحالي لهذا البحث، فإنّ لدينا نقولاً مكرّرة لآيات وردت من سور أُوحي بها - وفقاً للقرآن المُعادٍ ترتيبه ترتيباً زمنياً - بالأحرى في نهاية الفترة المكيّة وعلى امتداد الفترة المدنية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار إفريزات إعادة الترتيب الموضوعية على قاعدة دراسات بلاشير ونولدكه بصفة أخصّ، فسيظهر فراغٌ في اليسار يجسّد غياباً كبيراً ومدهشاً للغاية للاقتباسات القرآنية الواردة من قرآن الفترة الأولى المكية. يبدو من الدقيق للغاية - في هذا الطّور - أن نستطيع استخلاص نتائج حاسمة حول عدم وجود نقول من آيات القرآن القديم. يُعَدُّ كلُّ نقش من هذه النقوش - بناء على هذه المعايير - محلّ تحليل مفصّل. وفيما يتعلَّق بدراستنا التي تُعالِجُ بشكلٍ خاصّ القرآن في النقوش، فهي تقوم في

(١) جاكين شابي، Le Coran décrypté, Figures bibliques en Arabie، باريس، ٢٠٠٨، ص ١٢٥-١٣٥.

(٢) سعد بن عبد العزيز الراشد، كتابات إسلامية من مكة ١٩٩٥، ص ١٦٤-١٦٥. نتحدث هنا عن القرآن، سورة الواقعة (٥٦)، الآيات ٢٧-٣٩، غير أننا نجد أن ترتيب الآيات مختلف عن ترتيب المصحف.

(٣) ريجيس بلاشير؛ ترجمة القرآن، دار نشر Maisonneuve & Larose، ١٩٩٩، ص ٦٣٣، رقم ٣٧. ذكر النصّ سعد بن عبد العزيز الراشد في كتابات غير منشورة في رواوا، ١٩٩٣، ص ٤٥، رقم ٢١.

المقام الأول على فَصْلٍ مُجْمَلٍ المراجع المباشرة أو غير المباشرة عن النصِّ بحالته التي هو عليها اليوم؛ تَجْرَى مقابلة للمقتطفات المأخوذة من على الأحجار مع المصحف، ثم تُعالج على عدَّة مستويات، كما يتم إجراء ترتيب بين المقتطفات القرآنية والآيات الكاملة.

وقبل أن نوجِّه اهتمامنا للمحتوى، فإنَّ مجرد موضع الآية (أو المقتطف) داخل النقش يمنحنا معلومات قيِّمة حول ما إذا كانت توجد في بداية أو نهاية التَّشكيل، أو -على نحو نادر جدًّا- ما إذا كانت منقوشة بشكل مُنْعَزِلٍ. إنَّ وجود صيغة البسمة بشكلها الكامل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أو المبتور (بِسْمِ اللَّهِ) له كذلك أهمية في تحليلنا.

أسيس؛ بركان الآيات:

يُعَدُّ جبل أسيس (أو سَيْس) موقعًا أثرِيًّا لا يفتأ يُثِيرُ دَهْشَةَ الإيغرافيين، على بُعد (١٠٥) كم من جنوب شرق دمشق، وسط فيافي الصفا البركانية، تنتصب الفوهة المزدوجة لهذا البركان المتهدم جزئيًّا، في داخل الفوهة الأولى تُوجد أنقاضُ قَصْرِ عَرَبِيٍّ يَعُودُ إلى الفترة الأموية، والذي بُني هو الآخر على حِصْنٍ روماني يُعرفُ بـ *limes arabicus*. نَسَبَ ج. سوافغيت (J. Sauvaget) بناء هذا المجمع الأموي إلى الخليفة الوليد الأول (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م) الذي أَعَقَبَ الخليفة عبد الملك^(١).

يُعَدُّ كُوَيْسِ الفُوَّةِ الأعلى مكانًا مُدهِّشًا؛ حيث وجدت نحوت صخرية ونقوش إغريقية وصفائية وعربية. ومن بين هذه النقوش الأخيرة نجد النُقش الجاهلي وحيد اللغة، الذي يرجع إلى عامي (٥٢٨-٥٢٩ م)، والذي كُتِبَ بحروفٍ عربية^(٢). أمَّا

(١) ج. سوافغيت؛ «Les ruines omeyyades de Djebel Seis»، ص ٢٣٩-٢٥٦.

(٢) بيسر لارشيه؛ «In search of a standard: dialect variation and New Arabic features in the oldest Arabic written documents»، ص ١٠٣-١١٢.

الفترة الإسلامية؛ فثُمَّ مجموعة من مئات النقوش التي تُشكل متنَ البركان، هناك ثلاثة نصوص مؤرخة بين (٩٣هـ/٧١٢م)، و(١١٣هـ/٧٣٢م)، تُذكر بالنشاط الذي شهده الموقع تحت حكم المروانيين.

يَمْنَحُنَا هذا البركان - من خلال عَزَلته ووحدته الجغرافية - متناً مثاليًا لدراسة ظهور القرآن في الكتابات الحجرية الخاصّة، ولهذا فسنرجع إليه كثيرًا. وفيما يَخُصُّ دراستنا، فإنَّ نقوش أُسِّس تذكر عددًا كبيرًا من الاستشهادات القرآنية؛ فمن إجمالي (١٠٦) نصًّا تمَّ اكتشافها بشكل حصري في عامي (١٩٦٢-١٩٦٣) من قِبَل الباحث السوري محمد أبو الفرج العش، نجد فقط (٨٥) نقشًا قابلاً للقراءة والتهيئة للتحليل^(١). كما نَجِدُ (١٤) نقشًا تحوي نصوصًا تُنسَبُ إلى القرآن (١٦٪). يتعلّق الأمر هنا في الواقع بـ (١٧) من المقتطفات المختلفة، هذا الرقم في حدِّ ذاته يبدو ضعيفًا، لكنّه يأخذ قيمته بالنظر إلى المستوى المنخفض للموقع، وكذلك - وبشكل خاص - إلى الفترة المعنية، أُسِّس هو الموقع الوحيد المعروف الذي وجدنا فيه استمرارية إيغرافية عربية منذ فترة ما قبل الإسلام (-٩٤) وحتى منتصف الفترة الأموية (١١٣هـ). وعلى هذا النحو، فإنَّ وجود (١٧) آية يوفِّر لنا فرصة العمل على تحقيق قرآني فريد.

مسألة الآيات المعزولة:

تُعَدُّ المقاطع القرآنية المعزولة نادرةً إلى حدِّ كبيرٍ في الإيغرافيا العربية الخاصّة بالفترات الضاربة في القدم، يتعلَّق الأمرُ بالآيات المعزولة المنحوتة على الصخور والمجزأة بشكلٍ كاملٍ من سياقاتها، فلا ثمة اسم ولا ذكر يُصاحبها^(٢).

(١) أبو الفرج العش؛ كتابات عربية غير منشورة في جبل أُسِّس، ص ٢٢٧-٣١٦. أحصى المؤلف (١٧) نصًّا ليست في الواقع سوى مقتطفات من كتابات غير مقروءة أو نقوش معيبة.

(٢) على سبيل المقارنة، فإن موقع جاوا الأردنّي، الواقع على بُعد ١١٠ كم من جنوب جبل أُسِّس، حيث عثر على عدد من النقوش، لا يمنحنا سوى القليل من الآيات، ولا يحتوي على أي مقاطع قرآنية معزولة. انظر: ديمتري براميكى: النقوش العربية في البادية السورية، ص ٣١٧-٣٤٦.

لقد وقعنا على عدة نماذج من هذا النوع من النقوش في أسيس: ﴿إِن رَّبِّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١)، الآية هنا المبتورة؛ لأنَّ ختامها الذي يُذكَرُ بظروف الخلق (في ستة أيام، مع خضوع الكون للإرادة الإلهية)، نجده غائبًا في النسخة الحجرية. وهكذا يتلخّص محتوى الآية في المقطع الأساسي: الله خالق السموات والأرض. فإذا ما أوغلنا بعيدًا في البركان، فسنجد مقطعين قرآنيين آخرين معزولين منحوتين على صخرتين متميزتين: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢). تكشف المقارنة مع نصّ المصحف - هنا أيضًا - عن وجود اجتزاء كامل للنقش الموجود على الصخرة من سياقه؛ في الواقع يُذكر قرآن المصحف بقدرة الله المطلقة وأثرها على مصير البشرية في سياق تَنْبُؤِيٍّ مُحدّد متعلق بهزيمة البيزنطيين ثم بانتصارهم على جيوش الفرس، الذي وَقَعَ قرابة عام ٦٢٤م. ومع ذلك، فإنَّ هذه الحلقة قد أُغفلت تمامًا في نقش جبل أسيس، وهو ما يبدو تَجَاوُزًا في هذا الموقع الذي كان يحتله الرومان والغساسنة لحساب البيزنطيين^(٣). وفي السابق عام ١٩٥٦ كان بلاشير قد شكك - خلال ترجمته للقرآن - في البناء الخاص بالآيات من (٢) إلى (٥)؛ حيث تساءل حول هذا المقطع الذي كان يعتبره بناءً موجهًا إلى بعث ثقة المسلمين بعد هزيمة مؤتة أمام البيزنطيين في ٨ / ٦٣٠^(٤). ومهما يكن الأمر، فإنَّ مقطع أسيس قد استبعد تمامًا هذا السياق، ويجوز لنا هنا أن نتساءل: علام يعود الجزء الثاني المتعلق بيوم محدد يفرح فيه المؤمنون في نصّ القرآن، سيفرحون بـ «نصر الله»، أمّا على صخور أسيس البركانية فلا شيء هنالك مُستيقنٌ.

(١) القرآن، الأعراف، ٧، ٥٤؛ أبو الفرج العث «كتابات...»، ص ٢٤٦.

(٢) القرآن، الروم، ٣٠، ٤؛ أبو الفرج العث «كتابات...»، ص ٢٤٩ و ٢٥٩.

(٣) سفيند هيلمز؛ Early Islamic Architecture of the Desert، ص ٤١-٤٢.

(٤) ريجيس بلاشير، القرآن (مترجم من العربية)، ص ٤٢٩. راجع بالأخص القراءتين اللتين ذكرهما بصيغتي المبني للمعلوم والمبني للمجهول، ورأيه حول تقطيع الآيات.

فإذا ما استمررنا في استكشاف كُؤيس الفوهة؛ فإننا سنجد مقطعاً أخيراً معزولاً من سياقه منقوش على سطرين: (أنا عبد الله آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً)^(١)، وردت هذه الكلمات في القرآن على لسان عيسى، ولا يعقل أن يقصد بها غيره في أسيس. وهكذا يَبْقَى التساؤل حول السبب الذي وُضع لأجله هذا المقطع وحده على الحجر! لا يبدو المذاق المسيحي للمقطع أمراً مفاجئاً في هذه الأمكنة التي ظلت لفترة طويلة أرضاً مسيحية.

يُذَكِّر وجود نُقُشٍ عربيٍّ قَحَّ يعود إلى الفترة (٥٢٨-٥٢٩م)، (٩٤ قبل الإسلام) في هذه الأماكن بإرسال الملك المسيحي الحارث بن جبلة (٥٦٩م) لرجل عربي من قبيلة الأوس في حامية عسكرية^(٢). وإذا اعتبرنا هذا المقطع استشهاداً قرآنيّاً؛ فإنه من الضروري أن نتساءل عن سرِّ اختيار هذه الآية المنقوشة من قبل مسلم، لماذا لم يختَر شاهداً من الشواهد التي تُذكر ببعثة النبي محمد؟ وهذا يجعلنا نَمِيلُ أكثر إلى النظر من زاوية أخرى: قد يكون مقطعاً مسيحياً يتحدث عن نبوة عيسى نُقش بواسطة عربي مسيحي في الفترة الإسلامية ربما، أو قبل ذلك. لا شيء يَمْنَعُ من الناحية الباليوغرافية (دراسة علم الكتابات القديمة)، أن تكون هذه النقوش الكوفية سابقة على الوجود الإسلامي في الموقع الذي يُعود حسب سوفاغيت

(١) القرآن، سورة مريم، ٣٠-٣١. نفس الآية غير المكتملة نُقِشت مرة أخرى في أسيس: العُش؛ «كتابات....»، ص ٢٦٠-٢٦١، و ٢٨٨. [هكذا وردت في النص «أنا عبد الله»، بينما هي في القرآن ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ (المعلق)]

(٢) بدأ تنصير القبائل العربية في الشام (سوريا) منذ القرن الخامس الميلادي. كانت هذه القبائل المتحدة في تحالف تعمل على ضمان الدفاع عن الحدود الرومانية لصالح البيزنطيين. كما كانت هناك وحداتٌ مساعدة متحركة مثل الغساسنة القادمين من الجزيرة العربية، قد استقرت في الأراضي الرومانية مقابل اعتناقها للمسيحية. انظر؛ L'Arabie Chrétienne, Archéologie et sciences des origines، رقم ٣٠٩، ديسمبر ٢٠٠٥ - يناير ٢٠٠٦. سي. روبن؛ «La réforme de l'écriture arabe à l'époque du califat méridional»، ص ٣٣٠-٣٣٢.

إلى أعوام ٧٠٠م^(١). وبتوغلنا أكثر وأكثر في هذا الموقع نجد آية أخرى معزولة: ﴿خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(٢)، وهي أيضًا جزء من آية طويلة جدًا، يُعدُّ جزؤها السابق بمنزلة نصّ مدني مقحم في سورة مكية^(٣). يرد هذا الاستشهاد في المصحف في سياق قصة إبراهيم عقبَ تعداد أنبياء الله الذين أسبغ عليهم نعمه. يَصْعُبُ في أسيس أن نُفَسِّرَ اختيار هذا الطرف من الآية، إنَّها تعود على الأقل بشكلٍ موحٍ جدًّا على الأنبياء التوراتيين، وليس على نبي الإسلام حديثِ النشأة.

مواضع أخرى للآيات:

بشكل عام، تأتي الآيات -في النقوش الأكثر قديمًا- على رأس النّقش، كما هو الحال مثلًا في الآية الكاملة التي وُجدت في النقب، والتي يَرْجِعُ تاريخها إلى نهاية القرن الأول الهجري: ٧م، أو إلى بداية القرن الثاني الهجري: ٨م، والتي تأتي مباشرة بعد البسملة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾^(٤)، وتتعبها إشارة بسيطة. كتب مرزوق بن سليم يُظهر هذا البناء الصِّيغِي [بسملة + آية + توقيع] بوضوح أن النّقش قد وُضع لهدف صريح هو ذكر القرآن، يؤكّد هذا ويعززه اختيار هذه الآية المحورية التي تدرج في العقيدة الرسمية التي تطوّرت

(١) تدفعنا بعض العناصر الجغرافية إلى تأريخ هذه الكتابة في القرن السابع الميلادي. تضم التشكيلة الواسعة إذا جزءًا من القرن السابق على التاريخ الهجري (١ هـ / ٦٢٢ م): غياب تام للنقط، وغياب للألف الدالة على حرف العلة الطويل [ā] (كلمة آتاني، وكتاب)، والألف ذات البداية العمودية، والدال والكاف رباعية الزوايا، والعين المتوسطة على شكل [v]، والياء الأخيرة التي تتدلى تحت السطر الأساسي نحو اليمين.

(٢) القرآن، سورة مريم، آية رقم ٥٨. العُش؛ «كتابات...» ص ٢٦٨.

(٣) ريجيس بلاشير، ترجمة القرآن، ص ٣٣٣. سامي الديد أبو صالح، Le Coran (ordre chronologique, selon l'Azhaar)، ص ١٢٦.

(٤) Coran, Fath, 48, 28. Rosen-Ayalon, M., The Early Arab Period in the Negev، ص ١١، رقم ٥١٣١.

تحت حكم الأمويين؛ لتعكس حال مجتمع يسير على درب البعثة النبوية. لم يكن اختيار هذه الآية عبثاً بين نُقول أخرى، لكي تظهر على العملات اللاحقة للإصلاح الذي قام به عبد الملك منذ العام (٧٧هـ/٦٩٧م)، ولقد اختارها العباسيون أيضاً منذ الخليفة السفاح في ١٣٥هـ/٧٥٢م لكي تُوضع في المسجد النبوي بالمدينة مصحوبة بالقائمة القديمة المعروفة لأسس السنّة^(١).

ثمّة مثال آخر لهذه الآيات الواقعة في رأس النقوش يعزز ما رأينا؛ ففي قمة بركان أُسيس نجد نفس الطراز من التركيب: [آية + توقيع] بدون بسملة، ولكنها مؤرخة على الصخرة في شوال (٩٣هـ/ يوليو ٧١٢م)، ونصها هو: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وكتب علي بن عبد الله في شوال سنة ٩٣)^(٢). يشترك هذا النقش مع سابقه في البناء التركيبي وفي الفترة بشكل عام، ويتقاسم معه خصوصاً في كونهما يشيران حرفياً إلى آيات محورية إلى حدٍّ كبير. يتعلق الأمر هنا بآية تشير إلى القدرة الإلهية المطلقة، لكن هذه الآية غير مُكتملة إذا ما قارناها مع نصّها الكامل في القرآن، وهو النصُّ الذي عُرِفَ فيما بعد باسم آية الكرسي. تجدر الإشارة هنا إلى أننا سنقابل هذه الآية مرة أخرى (كاملة ومعزولة) في قصر الحرّانة بالأردن، مرسومة بالمداد داخل إطار يعود من حيث سياقه إلى سنة (٩٢هـ/ ٧١٠م)^(٣). تتناسب هذه النقول بلا ريب مع الفترة التي جرى فيها إرساء العناصر الأساسية للعقيدة التي يبدو أن القرآن قد تشكّل حولها. يعكس ظهور هذه النقول في النقوش مدى انتشار هذه الصيغ، أو الآيات في الفضاءات الخاصة للمجتمع العربي الإسلامي.

(١) يتعلق الأمر أيضاً بأقدم إشارة معروفة للفظة سنّة: انظر، المجلد الأول رقم ٣٨، Nevo, Y.: Crossroads, to Islam، ص ٣٥٢، و ٤٢٠.

(٢) القرآن، سورة البقرة، آية ٢٥٥. العُش: «كتابات...»، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٣) إف إمبرت؛ «Espaces d'écriture au palais de Kharrâna»، ص ٤٠٧ والشكل رقم ٦.

يُرَوَّى لَنَا حَدِيثٌ أَنَّ أَبِي بِنَ كَعْبٍ (حوالي ٦٥٢م) الَّذِي يُنسَبُ إِلَيْهِ كِتَابَةُ نَسْخَةِ أَثَرِيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أَنَّهُ كَانَ يَعُدُّ صَيْغَةً ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ - فِي عَهْدِ النَّبُوَّةِ - أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ. كَمَا وَصَفَهَا أَلْفَرْدُ لُويسُ دُو بَرِيمَارَ بِالتَّرْكِيبِ «الإنشادي» الواقِعِ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ مِنْ قَبْلِهَا بِالْأَرَامِيَّةِ فِي سَفَرِ دَانِيَالِ، وَفِي بَعْضِ التَّرْجُمَاتِ الْأَرَامِيَّةِ لِلتُّورَةِ^(١).

أَمَّا الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي نِهَائَةِ النُّقُوشِ فِي الْإِهْدَاءِ، فَهِيَ أَقْلٌ بِشَكْلِ كَبِيرٍ، وَلَا نَمَلِكُ مِنْهَا إِلَّا إِشَارَاتٍ نَادِرَةً فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ فِي وَادِي جَلِيلِ، وَفِي ضَلِيعِ النِّصْرِ^(٢).

إِنَّ اخْتِيَارَ الْآيَاتِ الْمَوْضُوعَةِ فِي نِهَائَةِ النَّصِّ يَبْدُو كَمَا لَوْ أَمَلْتَهُ إِِرَادَةَ إِنتَاجِ أَثَرٍ رَنَانٍ، فَهِيَ تَنْتَهِي جَمِيعُهَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، يَلِيهِ لَفْظٌ قَدِيرٌ وَصَنُوهُ (سَمِيعٌ عَلِيمٌ). يَبْدُو هَذَا الْاِخْتِيَارَ، الَّذِي يَحْتَّ عَلَيْهِ لَا مُحَالَةَ طَلَبِ السُّجْعِ النَّاشِئِ عَنْ تَمْدِيدِ الْيَاءِ، بِمَنْزِلَةِ (قِرَاءَةِ) مُقْفَاةٍ بِالتَّعْجَبِ الْآخِيرِ: آمِينَ آمِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّائِجِ كَثِيرًا فِي النُّقُوشِ.

الْأَخْلَاطُ الْقُرْآنِيَّةُ:

يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ هَا هُنَا بِتَرْكِيبَاتٍ أَصْلِيَّةٍ تَبَلُورَتْ عِبْرَ الْعَدِيدِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جَرَى مَوَاءَمَتُهَا، أَوْ تَعْدِيلُهَا كِي تَخْضَعُ لِسِيَاقٍ جَدِيدٍ بَغْضِ النَّظَرِ عَنِ السِّيَاقِ الْأَصْلِيِّ. الْمِثَالُ الْأَوَّلُ لِهَذَا الْخَلْطِ مُسْتَخْرَجٌ مِنْ مَنْقُوشِ سَعُودِيٍّ مِنْ مَنطِقَةِ الْحَنَاكِيَّةِ عَلَى مَسَافَةِ (٨٠) كَلِمٍ مِنْ شَرْقِ الْمَدِينَةِ^(٣):

(١) أَلْفَرْدُ لُويسُ دُو بَرِيمَارَ، Les fondations de l'islam، ص ٣١٢. انظر أيضًا؛ Aux origines du Coran، ص ٣٨.

(٢) W. Ğalil : Coran, Taġābun, 64, 1 in Grohmann, A., Arabic Inscriptions, p. 96 n° Z 155 ; (٢) Đayla' al-Niṣ' :Coran, Baqara, 2, 137 in Rāšid (al-), S., Darb Zubayda, ṭarīq al-Ĥaġġ min al-Kūfa ilā Makka al-Mukarrama, p.402.

(٣) Donner, F.M., « Some Early Arabic Inscriptions from Al-Hanākiyya, Saudi Arabia », n° (٣) .W1 , p. 1 , p.184-85, fig. 1

آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسر[اء]ـيل حنيفا مسلما وما انا من
المشركين وكتب رافع بن عدا[ي]ـ

هذا التركيب المؤرخ في القرن الهجري الأول هو في الواقع ناتج عدة عمليات؛ فقد قُدِّمَ دون بسملة على ضوء مقطع من الآية رقم (٩٠) من سورة يونس. في السياق القرآني الأصلي، نجد أن فرعون - في لحظة غرقه في البحر الأحمر - هو من ثاب إلى التوحيد، وشهدَ بوجود إله بني إسرائيل، لكنَّ هذا السياق قد أهمل تماما على صخرة السعودية. وحينما أضافَ فرعون ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ فإنَّ النَّاقِشَ قد أثر - من جهته - أن يُدرج آية أخرى (سورة يوسف، الآية ١٠٨) تُقرُّ الشيء نفسه، لكنَّ مع تعديل وجهة النظر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، غير أنَّه قد أدرج بين جزئي الآية المعدلة في الأصل آية أخرى من سورة آل عمران (الآية رقم ٦٧)؛ ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ التي انتزع فعلها حتى تتماشى قواعديا مع السياق الجديد، وهذا ما وصفناه بالزُّرع القرآني. وباختصار، فإنَّ لدينا مقطعا من يونس (آية ٩٠) + و"زرع" مبتور من آل عمران (آية ٦٧) + يوسف (آية ١٠٨). وعلاوة على كونه استشهدا ورعا مستقى من القرآن، فإننا نجد فيه تركيبا واعيا كانت غايته أن تستعمل الصيغة ببساطة لفائدة النَّاقِش. وثمة مثال آخر مأخوذ من بركان أسيس، يتيح أيضا فهم هذه الأخطا بشكل أفضل^(١):

ربي الله وديني الإسلام عليه توكلت وإليه أنيب وإليه المصير وكتب حفص في
ذي القعدة سنة تسع عشرة ومائة من محاه وأخزاه الله في الآخرة أمين

هذا التركيب هو نتاج عمليتين: تشكَّلت القاعدة من الآية رقم (١٠) من سورة الشورى التي نصَّها في المصحف هو ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، حيث اختفى اسم الإشارة القديم (ذلكم) المرتبط بالسياق القرآني؛ ليحل محله

(١) العُش؛ «كتابات...»، الصفحات ٢٩٠-٢٩١.

صيغة معكوسة (ربي الله) عوضاً عن (الله ربي)، وهذه الصيغة المعكوسة قرآنية أيضاً؛ إذ نجدها في سورة غافر، آية رقم (٢٨).

فضلاً عن ذلك، نجد إدراج الجملة الاسمية (ديني الإسلام)، وإضافة آية ﴿وَالِيَهُ الْمَصِيرُ﴾ في منطوق التركيب النحوي، وهي الآية التي يعود أصلها إلى القرآن أيضاً.

أما الإشارة الأخيرة التي تضمنت لعنة موجهة لمن يروم محو النص؛ فهي لا تخلو أيضاً من قيمة؛ ذلك أن إعادة تملك نقش ما حين يعمد أحد النقاش إلى وضع اسمه بدلاً من آخر بعد شطب اسمه، نادرة للغاية في الإبيغرافيا العربية. وبالتالي؛ فإن اللعنة تبدو متوجهة بالأحرى إلى كل شخص تُسَوَّلُ له نفسه التصرف في محتوى هذا الخليط، من كان يجرؤ حقاً على محو القرآن في عام (١١٩هـ / ٧٣٧م)، عهد الخليفة الأموي هشام؟!

بعد ذلك ببضع سنوات، وتحديدًا عام (١٢٧هـ / ٧٣٧م)، وُجِدَتْ أيضاً في المنطقة الجبلية لبني شهر بالمملكة العربية السعودية، كتلة صخرية^(١) تحمل لعنة تأتي مباشرة عقب آية مبتورة لم تكن غير بداية آية الكرسي (البقرة آية ٢٥٥): لُعِنَ من محا هذا الكتاب أو غيره.

إنَّ وجود هذه الصيغ الخاصة جدًّا عقب النقول القرآنية يلفت نظرنا إلى أنه في نهاية الفترة الأموية لم يكن قد انعقد الإجماع بعد حول نسخة موحدة ومقننة للنص^(٢). وهكذا تبدو الأخلاط أكثر من كونها مجرد تركيبات أعيد بناؤها لتكون بمنزلة نسخ محتملة لم يُحتفظ بها للنسخة القرآنية المكتوبة.

(١) الكتلة يمكن معاينتها على موقع منتدى القبائل العربية: [2010] <http://www.moltaqa1.com>، ملحوظة: تتبعنا هذا الرابط ولم نصل إلى شيء، وربما تغير عنوان الموقع من وقت كتابة إمبرت مقالته، مسؤولو قسم الترجمات.

(٢) كما سيذكر الكاتب نفسه في موضع لاحق، فإن هذا -وفي رأي الكثير من الباحثين الغربيين الذين طالعوا ودرسوا نفس النقوش- لا يدل على هذه النتيجة التي توصل لها هو بعدم وجود نص قرآني مجمع عليه إلى العصر الأموي، بل يصل البعض إلى عكس هذا، حيث تدل هذه التصرفات في النص لدواعٍ شخصية وسياسية إلى الاتفاق أصلاً على النص القرآني والمعرفة به، مسؤولو قسم الترجمات.

عند قراءة هذه الأخلاط أو التجميعات يَظْهَرُ أَنَّ الأشخاص الذين كتبوا هذه النقوش كانوا معتادين على التركيب من خلال النصوص القرآنية التي يمكننا وصفها بالـ«مرنة».

إِنَّ بقاء آيات حُذِفَتْ بدايتها ونهايتها وإقحام جمل أُعيد تنسيقها نحوياً، وخواتيم آيات بديلة، طوال فترة الـ(١٥٠) سنة الأولى من تاريخ الإسلام؛ كل هذه عناصر تفرض علينا أن نتساءل حول استقرار النصّ قبل بداية الفترة العباسية؛ ذلك أن التغيير كبير جداً.

التباينات مع النصّ القرآني:

هل القرآن -على النحو الذي نصادفه في النقوش - متوافق مع نص المصحف؟

لندلّل هنا ببعض المعطيات الرقمية:

من بين (٨٥) نصّاً مقتطفاً جرى حصرها، نجدُ أَنَّ (٣٦٪) منها فقط هي المتوافقة حرفياً مع نصّ المصحف، وهو ما يفهم منه أن (٦٤٪) ليست كذلك، ينبغي أن نميز -بطبيعة الحال- بين نوعين من النقول الحرفية:

- تلك التي جرى تركيبها من مقتطفات قائمة بذاتها (جمل)، وهي تمثل (٣١) نقلاً من إجمالي (٨٥).

- وأخرى كثيرة التكرار في القرآن، ولا تتركب إلا من متلازمات لفظية مثل: (رب موسى وهارون)، و(يوم الحساب)، أو (إليه المصير).

لا شكَّ أَنَّ مسألة التباينات التي نُصادفُها بين الصيغ الإيبغرافية والنصّ القرآني الرسمي تُثيرُ انزعاجاً حساساً، لا يتعلق الأمر هنا بالانغماس من جديد في الكتابات والأعمال المطولة التي قدّمها كتاب التراث والعلماء المسلمون أو المتخصصين الغربيين في الإسلاميات، فيما يتعلق بالاختلافات والنسخ الأخرى

غير الرسمية. فموضوعنا هو قبل كل شيء موضوعٌ إبيغرافي، وبناء عليه فهو لا يتعامل مع القرآن من حيث هو رسالة دينية، ولكنه يحلّل الوثائق ذات الصبغة المادية القصوى التي تردُّ فيها آيات. لكن لفظة «آيات» في حدِّ ذاتها محلُّ التباس يَحْتِجُ إلى أن يُبَدَّد أولاً، لا يعمل الإبيغرافي على مستوى النصِّ في كليته؛ لأنَّه مُعَرَّضٌ للتنجيم القرآني، على غرار الآيات المعزولة أو المختلطة التي ذكرناها آنفاً. بالإضافة إلى ذلك، تنشأ حالة من التشوُّه المنطوي على مغالطة تاريخية حينما نذكر صيغاً من بداية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ونحللها في ضوء النصِّ من خلال صيغته الرسمية المقننة المكتوبة منذ العام ١٩٢٣م. وفي النهاية، فإنَّ مجرد لفظة «آية» تستدعي تأثيراً وحيداً الاتجاه يُنْطَلِقُ من القرآن نحو النصوص الإبيغرافية. تبقى هذه النقطة في حاجة إلى تأكيد بالنسبة لعددٍ كبيرٍ من النقوش. بعض الأمثلة ستُشْعِفُنَا بفهم أفضل للمسألة.

نَجِدُ في نقش عراقي أخذ من حفنة الأبيض، مؤرخ بتاريخ شوال (٦٤هـ/ مايو ٦٨٤م)، هذا الشفاء^(١): وسبحان الله بكرةً وأصيلاً وليلاً طويلاً. أراد النَّاقِشُ -في وسط السطر المنحوت- أن يسمَّ خاتمةَ الاستشهاد القرآني بمستطيل كبير. وهكذا نجدها شاذة عن الأدعية المفتوحة بِ«اللهم». ينبغي أن نذكر هنا أنَّ القرآن الذي أراد أن تُطبع به شكلياً خاتمةُ النقل، لا يتوافق في شيء مع المصحف.

إنَّ روح هذه الصيغة حاضرة في القرآن في صورٍ مُتعددة، يتمثل ذلك في طلب التسبيح بحمد الله آناء اليوم: بكرةً وأصيلاً^(٢)، أو بكرةً وعشيّاً^(٣). ومع ذلك، فلم يُشر القرآن مطلقاً إلى ثلاثة أوقات كما هو عليه الحال في النقش. والإشارة

(١) عز الدين الصندوق؛ حجز حفنة الأبيض، ص ٢١٣-٢١٧.

(٢) القرآن؛ الفرقان، آية ٥، والأحزاب، آية ٤٢؛ والفتح، آية ٩.

(٣) القرآن؛ مريم، آية ١١.

الوحيدة المماثلة تقع في مجموع مكوّن من آيتين من سورة الإنسان: ﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [....] وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿^(١)﴾. ومهما يكن الأمر؛ فإن ذكر النقش للفظة (سبحان) مصحوبة بلحظات اليوم الثلاث يُعد أمرًا استثنائيًا ومختلفًا بوضوح عمّا ورد في الآيات القرآنية.

ومن بين الاختلافات المشهورة التي كُنّا قد ذكرنا سنة ١٩٩٨م، آية من سورة ق: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿^(٢)﴾، التي تظهر عباراتها الأخيرة مشروحة بشكل ما على أحد النقوش في النقب مؤرخ في ١٦٠هـ / ٧٧٦م: يوم دعا المنادي من إيليا^(٣). هذا الاسم الأخير ليس سوى تعريبٍ للفظة [Elia[Capitolina]؛ الاسم الروماني للقدس الذي كان لا يزال متداولاً زمن الأمويين.



(١) القرآن؛ الإنسان، الآيتان ٢٥ و ٢٦.

(٢) القرآن؛ ق، آية ٤١. راجع إف. لامبرت؛ «Le Coran dans les graffiti des deux premiers siècles de l'Hégire»، ص ٣٨٩.

(٣) Nevo, Y., Crossroads to Islam, p. 399, n° MA 4339 (22).

التكيفات النحوية:

غالبًا ما تكون الجمل التي نَصِفُهَا بِأَنَّهَا (مستوحاة من القرآن) ليست في الواقع سوى صيغ مختلفة على نحو يسير جدًا عن الصيغ الواردة في القرآن. إنها صيغ جرى تكيفها نحويًا تمهيدًا لإدماجها بسهولة في سلسلة من الأدعية.

في سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م، في ظلّ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، نَجِدُ نَقْشًا قد افتتح بعبارة (اللهم اغفر لـ... ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وأتمّ نعمتك عليه، واهد صراطك المستقيم)^(١).

تُبَيِّنُ الظروف «التاريخية» للوحي (أسباب النزول) بأن مجموع الآيات التي ينتمي إليها هذا النقش قد أُوْحِيَتْ إلى النبي سنة ٦ هـ / ٦٢٨ م لدى عودته من الحديبية، وبعد دخوله المظفر إلى مكة^(٢). ما يعنينا هو المقطع الثاني من النقش، الذي يرد في النص القرآني مسبقًا بذكر النصر الموهوب بعون من الله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. يتسم الربط بالآية التالية بتحول واضح في الضمائر النحوية، من ضمير «إنا» (فتحننا) إلى ضمير الغائب «هو» (يغفر). هذا التَّحْوُلُ في المتحدث في آية ممتدة نحويًا يمكن أن يكون قرينة على تجميعات قديمة تعود إلى فترة تكوين النصّ. يؤيّد هذا دَلَالِيًّا تحوُّل الموضوع (مغفرة الذنب) الذي يقطع موضوع الآية الأولى (منح النصر). نجد على الحجر - في فلسطين - أن الإشارة إلى نصر النبي قد مُحِيَتْ تمامًا؛ فجاء فعل أمر (اغفر) بدل صيغة التعليل (ليغفر) التي تتصل بشكل طبيعي بلفظة «اللهم» الموجودة في بداية النصّ. ووفقًا لروح الدعاء الموجه إلى الله لصالح شخص ثالث؛ فَإِنَّ تَوَافُقَ الضمائر اللاحقة يجري

(١) نقش عين عبدات في فلسطين، جنوب بئر السبع. لاحظ نسيان التنوين (أ) في الحالة المباشرة غير المحددة على كلمة صراط. انظر: م. روزن-أيالون؛ «The Early Arab Period in the Negev», p. 6, n° 305 ; Sharon, M., Corpus, vol. III, p. 179, pl. 53

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٥.

على خلاف القرآن: «لِكَ» ستحيل على الله (نعمتك)، و«ه/ه» ستحيل على الذي وقع الدعاء لصالحه (ذنبه، اهده... إلخ).

وهذا مثال للتكيف أكثر ندرة نصادفه في جبل أسيس، حيث يتعلّق الأمر دومًا بالضمير اللاحق الذي سيساعد في إجراء عملية الدمج في ثنايا دعاء ما ليتحول لصالح شخص مجهول: (وأدخله برحمتك في عبادك الصالحين) بدلًا من ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التي نجدها في القرآن^(١).

صيغ مغايرة تذكر اسم الله الرحمن:

في بعض الأحيان، لا يُعبّر عن الصيغ المغايرة إلا عبر تبديل الألفاظ. ففي القرن الثاني الهجري/ السابع الميلادي، وتحديدًا في موقع الأشقاف الجنوبي: *al-Ašqāf al-Ganūbī* في الشمال الشرقي الأردني، نجد نقشًا يذكر^(٢): (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الرحمن بقلب سليم). النسخة المصحفية تضع لفظ «الله» محل (الرحمن)^(٣). هذا التبديل، الذي لا يمكن رده إلى الصدفة، ولا إلى الجهل بالنص من قبل النَّحَّات، لا يمكن أن يمضي دون أن يستدعي لنا طبيعة اسم (الرحمن)؛ هذا الاسم هو أول اسم ذكر في صيغة البسملة قبل صنوه «الرحيم» المتكون من نفس الجذر، والذي له مكانة خاصة في الإسلام، كما أنه أول الأسماء التسعة والتسعين التي تصف الله، ويردُّ بعد لفظ «الله» في القوائم العديدة التي وضعها علماء العقيدة المسلمون^(٤).

(١) القرآن، صورة النمل الآية ١٩. العشر: «كتابات...»، ص ٢٥٧.

(٢) عبد القادر الحصان؛ مختارات من النقوش في المفرق ومعان، رقم ٥، ص ٢٩.

(٣) القرآن؛ سورة الشعراء، الآيات ٨٨-٨٩.

(٤) سيكون الرحمن أحد الأسماء ذات الشأن، والمرشحة لتكون اسم الله الأعظم. انظر: دي. جيماريه؛

Les noms divins en Islam، الصفحات ٩٢، و٣٧٥ و٣٧٦.

نَجِدُ أَيضًا فَوْقَ صَخْرَةٍ مِنْ صَخُورِ وَادِي أَبِي الْقِرَازِ قَرِيبًا مِنَ الْعُلَى بِالمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ دَعَاءَ رَحْمَةٍ قَدْ تُوسَّلُ خَلَالَهُ بِذِكْرِ اسْمِ الرَّحْمَنِ (رَحِمَ الرَّحْمَنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعِبَادِ).

كَانَ اسْمُ الرَّحْمَنِ يَسْتَعْمَلُ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ فِي مَنَاطِقَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِقَصْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَلُوْهِيَّةِ الْمُتَفْرَدَةِ. كَمَا أَنَّنا نَجِدُ أَنَّهُ بِهَذَا الْاسْمِ ادَّعَى الْمَدْعُو مَسِيلِمَةَ، الْمُنْحَدِرَ مِنْ قَبِيلَةِ تَهَامَةَ، النَّبُوَّةَ خَلَالَ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ. أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ اسْمَ الرَّحْمَنِ كَانَ فِيْمَا سَبَقَ فِي بَعْضِ الْكُتَابَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ يَصِفُ إِلَهَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى^(١). وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّهُ فِي إِطَارِ هَذَا الْاِمْتِدَادِ التَّوْحِيدِيِّ، وَتَحْتَ صَيْغِ أُدْبِيَّةٍ تَنْدَرُجُ بَعْضُ الْمَقَاطِعِ الْقُرْآنِيَّةِ، لَا سِيْمَا سُورَةُ الرَّحْمَنِ الَّتِي تَبْدَى فِي صُورَةٍ نَشِيدٍ يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ الرَّحْمَنِ، مُفْتَتِحٌ بِذِكْرِ اسْمِهِ [الرَّحْمَنُ]. وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى أَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ الْوَارِدَةِ فِي النُّقُوشِ الَّتِي نَدْرَسُهَا، فَسَنَجِدُ أَنَّ الْاِسْمِينَ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى الْإِلَهِ: «عَبْدُ اللَّهِ»، وَ«عَبْدُ الرَّحْمَنِ»، يَتَوَزَعَانِ بِشَكْلٍ مُتَعَادِلٍ نَسْبِيًّا. خِلَاصَةَ الْأَمْرِ أَنَّ مَجْمُوعَةَ كَامِلَةٍ مِنَ الْقُرَائِنِ تَحْمِلُنَا عَلَى الْاِعْتِقَادِ بِأَنَّ الْإِبْيَغْرَافِيَا يُمَكِّنُ أَنَّ تَكْشِفُ آثَارَ تَسْمِيَّاتِ إِلَهِيَّةٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ تَسْتَعْمَلُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ اسْمِ «اللَّهُ» أَوْ مَقْرُونَةً بِهِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ الْبَسْمَلَةَ نَفْسَهَا الَّتِي تَحْمِلُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا هَذَا التَّكْرَارَ الْفَرِيدَ لِلْجَذْرِ «رَحِمَ»، هِيَ صَيْغَةٌ حَجْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ، تَذَكُرُ أَنَّ الْاِسْمِينَ «اللَّهُ» وَ«الرَّحْمَنُ» يَشِيرَانِ إِلَى نَفْسِ الْأَلُوْهِيَّةِ الْمُتَفْرَدَةِ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ لَفْظَ «الرَّحْمَنِ» فِي الْبَسْمَلَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنَّ يَكُونُ وَصْفًا إِلَهِيًّا بَسِيْطًا بِحَيْثُ يُعَادِلُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ لَفْظَةَ «الرَّحِيمِ». وَعَلَى هَذَا، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْرَحَ بِخُصُوصِ النُّقُوشِ الضَّارِبَةِ فِي الْقَدَمِ التَّرْجُمَةَ التَّالِيَةَ:

"Au nom d'Allah, al-Rahmān le Miséricordieux"

(١) إم. رودانسون؛ Mahomet، ص ٩٢، وسي. روبن؛ «Du paganisme au monothéisme»، ص ١٤٦، وإي. - إل. دو بريمار؛ Aux origines du Coran، ص ٣٨.

الحقائق الإبيغرافية لنص مرن:

تتجلى خصوصية القرآن مقارنة مع كتب الوحي الأخرى في تقدمه بوصفه كتاباً إلهياً. وبحسب التراث الديني الإسلامي؛ فقد تمّ هذا وفق نمط إجرائي يتمثل في «التنزيل» على رسول -النبى محمد- بواسطة الملك جبريل. كانت عملية تقنين النصّ -على ما يبدو- سريعة إلى حدّ كبير، وامتدت عبر قرنين من الزمان تقريباً. كان يجب -أمام الكتابات المسيحية واليهودية- التأكيد بقوة على حقيقة الرسالة الإلهية المتلقاة في كتاب.

هذه الضرورة تُفسّر جزئياً التركيز البالغ على مسألة وحدة النصّ القرآني وكماله، وهو التركيز الذي سيُتوج فيما بعد باستحداث عقيدة الإعجاز: إعجاز القرآن. لكن الروايات القديمة التي عالجت سيرورة جمع وكتابة النصّ [القرآني] وتدوينه تبين لنا كيف كانت العملية طويلة وعسيرة. إنّ القرآن، في صورته المصحفية، لا يزال يحتفظ بآثار عديدة تدلّ على هذا الأمر. تأتي كتب التاريخ وكتب السير والأعلام فيما بعد لتضع الوحي في سياق تاريخي وعقدي موثوق تسمح بإعادة قراءة أصول الإسلام. وهكذا وجدت عقيدة القرآن الممثل حرفياً لكلام الله نفسها مُعصّدة على نحو حاسم وقاطع.

إنّ الإبيغرافي مثله في ذلك مثل مؤرخي النصوص، يمكن أن يسمح لنفسه بالقيام بقراءة غير مقدسة لهذه العقيدة، من حيث إنه يعتبر أنّ للنصّ تاريخاً يتأسس على تشكيلة من الوثائق الصحيحة، والتي تُعدّ النقوش القديمة جزءاً منها.

تضم هذه النقوش أحياناً استشهادات قصيرة قريبة جداً من الآيات، لكنها منتزعة تماماً من سياقاتها، ومنقطعة الصلة بما كانت عليه في النصّ القرآني الرسمي. تعكس المقتطفات التي استخرجناها من على الحجارة تباينات واضحة، لكن

ليس من شأنها أن تزعزع الإيمان، فعقيدة الإسلام الجوهرية مُحترمة في الأعماق. لكن بالرغم من ذلك، لا تدخل هذه التباينات بشكل مقصودٍ في إطار القراءات المشهورة (اختلافات القراءة أو الترتيل)، والتي نعلم أنها وُضعت في نحو منتصف القرن العاشر الميلادي. إنها هي مجموع الاختلافات المقبولة والناشئة عن تباينات في النطق، ولا تستند إلا على التفاصيل الإملائية أو النحوية أو الصرفية. إنَّ القبول الرسمي بهذه التباينات وتثبيتها يمثل نهاية عملية إعداد النسخة الأولى للقرآن. وفي هذا الصدد ذكر بلاشير أن المصحف «الذي وُضع في صيغة واحدة لا يعكس سوى نفسه»^(١). في الواقع؛ ثمة عدد من الباحثين الغربيين والعرب يجنحون إلى عدم اعتبار دراسة النصِّ إلا في اتجاه أحادي، وهو وجود مقاطع قرآنية تُدمج خلالها حقولٌ نصيَّةٌ متنوعة؛ كتابات منقوشة أو محفورة، وعمليات، وثائق رسمية... إلخ. أما اليوم، وفي حالة النقوش؛ فإن لنا أن نتصور العكس: أن صيغاً ونقولاً كانت واسعة الانتشار في الشرق الأدنى انتهت بالاندماج في النصِّ القرآني الذي كان قيد التشكُّل^(٢).

إنه لمن الجاري المؤلف حين نعالج كتابات مجهولة الهوية تستخدم القرآن لأغراض خاصة أن ننظر إلى التفاوتات في منحىٍ وحيدٍ وواحدٍ: النصِّ القرآني المحدد سلفاً، والمنتشر على نحوٍ واسعٍ في العقول سيُعامل معاملة سيئة أو سيُتصرف فيه بحرية واسعة من قبل أفراد يعرفونه معرفة سيئة، أو يأذنون لأنفسهم بتكليفات غير مُرحَّبٍ بها. وعلى عكس ذلك، فنحن مقتنعون بأنَّ قرآن

(١) ريجيس بلاشير؛ القرآن، ص ٧٩. حول القراءات بشكل عام، راجع بلاشير؛ Introduction au Coran، ص ١٠٣-١٣٥، وإي. - إل. دو بريمار؛ Aux origines du Coran، ص ١٢، و ٢٧.

(٢) بالطبع وكما ذكرنا سابقاً وكما يشير الكاتب هنا، فإن هذا تصوّر الكاتب فحسب، والذي لا يوافق عليه بعض الباحثين الغربيين المطلِّعين على نفس النقوش، والذين يقدمون تحليلات أخرى مغايرة، مثل إستل ويلان ولويس دي بريمار، مسؤولو قسم الترجمات.

الحجارة هو ثمرة قرآن القلوب؛ ذلك القرآن الذي نعرفه عن قرب، والذي ننفق وقتاً كبيراً في نقشه على الحجارة^(١). إنه بالأحرى انعكاس لنصّ قرآني قيد التطور مرّن لم يُحدد بعد، وطبّع لدرجة إمكانية اندماجه دلاليّاً ولغويّاً في صميم صيغ تقبله بشكل طبيعي. وبنفس هذه المرونة، يمكننا - في كلّ الأحوال - أن نتخيل خروج هذه الصيغ وتكييفها المتعلّق في ورشة نصّ قرآني في طور التبلور.

إنّ طبيعة النصوص التي نكتشف شيئاً فشيئاً تبدو أحياناً مُدهشة، وتعلّق بإيغرافيا جميع الممكنات، مفتوحة أمام جميع الاحتمالات. إنّه لمن الواضح جدّاً أن النتائج التي توصلنا إليها تتطلب المزيد من الشواهد المعصّدة في ضوء تحليلات جديدة ونصوص إيغرافية حديثة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّه من الوهم بمكان أن نعتقد بأنّه سيأتي يوم نحصل فيه على قرآنٍ كاملٍ منبثق من النقوش بحيث لا يكون مركّباً في هذه الحالة إلا من أجزاء كثيرة تنتمي إلى أصول وفترات زمنية متفرقة. لن نستطيع أبداً قرآن الحجارة أن يكون صدى للقرآن التقليدي الموروث. وهذا هو السبب الذي من أجله يتعين علينا أن نسمح لأنفسنا بكثير من المرونة في تعاملنا مع نصّ المصحف حتى لا يقف هذا النصّ حجر عثرة لا يمكن تجاوزه أمام تحليلنا.

(١) ذكر مقال من صحيفة الوطن السعودية (٣٠ يونيو ٢٠٠٩) أن فريقاً من خمسة عمال أنفق (١٧) ساعة لنقش ما يقرب من عشرين بيتاً من الشعر الجاهلي على صحخور موقف سيارات يقع في مكان سوق عكاظ بالطائف. انظر:

<http://www.alwatan.com.sa/news/newsdetail.asp?issueno=3196&id=108336>

نُقِّد الوقتَ اللازم لنحت نقش من عدة أسطر - بدون أدوات متطورة - ما بين ساعتين إلى خمس ساعات، وذلك تبعاً لحجمه وزخرفته.

ملحوظة: تتبعنا هذا الرابط ولم نصل إلى شيء، فربما تغير عنوان الموقع من وقت كتابة إمبرت مقالته، مسؤولو قسم الترجمات.

إنَّ ما نكتشفه في النقوش الأثرية من قرآنٍ مختلفٍ اختلافاً مقبولاً - وإن كانت هذه الفكرة تصدم بشكلٍ مباشرٍ بعض أسس التراث الإسلامي - ينبغي ألا يتحول إلى مناسبة للانزلاق في الجدليات القديمة، والمناظرات المذهبية التي يُعتقد أن زمنها قد ولى وراح. يمكن أن نتصور أنه لم يسُغ للعلماء المعتزلة في القرن التاسع الميلادي أن يعيدوا - من خلال أبعاد جديدة - السجال حول هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ ... وإن كنا نميل بدلاً عن ذلك إلى الاعتقاد بأن هذه الدراسات الإبيغرافية تتيح لنا الفرصة لإعادة اكتشاف القرآن من خلال إغناء تاريخه بإشكالات جديدة وحيوية. أليس الثراء وليد التعدد؟!

وفي الختام، نذكر ببساطة أن النقوش التي تحدثنا عنها في هذه الدراسة هي جزءٌ لا يتجزأ من التراث الأدبي والثقافي والديني للعرب، وهي بلا ريب أقدم كتاب دبّجوه بأنفسهم، كتاب يشاطروننا فيه أسرار إيمانهم، وعقيدتهم، وقرآنهم. ترى كيف لنا أن نتجاهل اليوم هذه الشهادات؟!



ثَبْتُ الْمَرَاJِعِ:

- الديق، سامي أبو صالح؛ القرآن الكريم بالتسلسل التاريخي للنزول وفقاً للأزهر، الترجمة الفرنسية، دار نشر 2009، L'Aire.
- برامكي، ديمتري؛ النقوش العربية في البادية السورية، مجلة أبحاث، العدد 17، 1964، الصفحات 317-346.
- Blachère, Régis, Introduction au Coran, Maisonneuve, Paris, 1946.
- Blachère, Régis, LeCoran [traduitdel'arabe], MaisonneuveetLarose, Paris, 1956[réédition1999].
- Blachère, Régis, Le Coran, coll. Que sais-je ?, 1966.
- Collectif, L'Arabie Chrétienne, Archéologie et sciences des origines, n°309, déc.2005-janv.2006.
- Donner, Fred, « Some Early Arabic Inscriptions from Al-Hanâkiyya, Saudi Arabia », Journal of Near Eastern Studies, n° 3, (Jul. 1984), n° W1, p. 1, p. 181-208.
- Gimaret, Daniel, Les noms divins en Islam, col. Patrimoine Islam, Cerf, Paris, 1988.
- Grohmann, Adolf, Arabic Inscriptions, ExpéditionPhilby-Ryckmans-LippensenArabie,II, Textes épigraphiques, T. I., Louvain, 1962.
- Helms, Svend, Early Islamic Architecture of the Desert : a Bédouin Station in Eastern Jordan, Edinburgh University Press, 1990.
- الحصان، عبد القادر؛ مختارات من النقوش في المفرق ومعان، المجلة السنوية لقسم الآثار بالأردن، 50، عمان، 2006، رقم 5، الصفحات 15-36.

- ابن كثير، إسماعيل؛ تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، دار الإحياء العربي، بيروت.

- Imbert,Frédéric,«Espaces d'écritureaupalaisdeKharrâna»,StudiesintheHistoryand
- Archeology of Jordan, V, Amman, 1995, pp. 403-416.
- Imbert, Frédéric, « Le Coran dans les graffiti des deux premiers siècles de l'Hégire »,
- Arabica, t. XLVII, 2000, pp. 381-390.
- Imbert,Frédéric«L'Islamdespierres :l'expressiondelafoidanslesgraffitiarabesdes premierssiècles »,inL'écrituredel'histoireetprocessusde canonisationdanslemonde musulmandespremierssièclesdel'islam, hommageàA.-L.dePrémare,REMMM129,2011, pp. 57-78.
- الكلابي، حياة؛ الآثار الإسلامية ببلدة بدا، محافظة الوجه، الرياض، ٢٠١٠.
- Larcher,Pierre,« Insearchofastandard :dialectvariationandNewArabicfeaturesinthe
- oldestArabicwrittendocuments»,TheDevelopmentofArabicasaWrittenLanguage, Seminar for Arabian Studies, 40, Oxford, 2010 pp. 103-112.
- Nevo,Yehuda ;KorenJudith,CrossroadstoIslam,TheOriginoftheArab Religionandthe Arab State, New-York, 2003.
- Prémare(de),Alfred-Louis,Lesfondationsdel'Islam.Entreécritureethistoire,Paris,Seuil, 2002.
- Prémare (de), Alfred-Louis, Aux origines du Coran, questions d'hier, approches d'aujourd'hui, Téraèdre, Paris, 2006.

- الراشد، سعد؛ درب زبيدة، طريق الحجاج من الكوفة إلى مكة المكرمة، الرياض، ١٩٩٣.
- الراشد، سعد؛ كتابات إسلامية غير منشورة من «رواة» المدينة المنورة، الرياض، ١٩٩٣.
- الراشد، سعد؛ كتابات إسلامية من مكة المكرمة، الرياض، ١٩٩٥.
- Robin,ChristianJulien,« Laréformedel'écriturearabeàl'époqueducali fatmédiinois »,
 - Mélanges de l'Université Saint-Joseph, vol. LIX,2006, pp. 319-364.
 - Robin,ChristianJulien,«Dupaganismeaumonothéisme»,REMMM,6 1,L'Arabieantique de Karib'il à Mahomet, 1991, pp. 139-155.
 - Rodinson, Maxime, Mahomet, Paris, 1961.
 - Rosen-Ayalon,Myriam,TheEarlyArabPeriodintheNegev,NegevArchaeologicalProject
 - Early Arab Period, Hebrew University of Jerusalem, Jérusalem, 1992.
 - Sauvaget, Jean, « Les ruines omeyyades de Djebel Seis », Syria XX, 1939, pp. 239-256.
 - Sharon, Moshe, Corpus Inscriptionum Arabicarum Palestinae, vol. III, Leiden, 2004.
- أبو الفرج العُش؛ كتابات عربية غير منشورة في جبل أُسيس؛ مجلة الأبحاث، العدد ١٧، ١٩٦٤، الصفحات ٢٢٧-٣١٦.
- الصندوق، عز الدين؛ حجز حفنة الأبيض، سومر، العدد ١١، ١٩٥٥، الصفحات ٢١٣-٢١٧.